بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 23 مايو 2017

النخبة السياسية من رفض الإيديولوجيات إلى مصالحة الديمقراطية

محمد الرضواني
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

ملخص:

تتناول المقالة إحدى النظريات الأساسية في مجال علم السياسة التي تصدّت، بالتحليل المنهجي، لإشكالية السلطة من خلال التركيز على النخبة السياسية؛ حيث تتطرق إلى الخلفيات السياسية والتاريخية التي ساهمت في تبلور الأفكار الأولى في التنظير النخبوي، متمثلة أساسًا بتراجع الأوضاع السياسية والاقتصادية، وانتشار الفساد في بعض الدول الأروبية، وعلى رأسها إيطاليا، وتزايد الانتقادات للإيديولوجية الليبرالية والاشتراكية في مطلع القرن العشرين، كما يتناول الأسس الفلسفية والفكرية المؤثرة في رواد نظرية النخبة؛ حيث التراكم المعرفي في الفلسفة وعلم الاجتماع في موضوع الفئات الحاكمة والمهيمنة، وأهميتها في المجتمعات السياسية المنظمة، والتي مثلت المنطلقات الأساسية في التنظير النخبوي.

تعود البدايات الأولى لنظرية النخبة إلى أروبا في بداية القرن العشرين، حيث قادها ثلاثة من الرواد التأسيسيين؛ ولفريد باريتو، وجيتانو موسكا، وروبرت ميشلز، الذين حاولوا توظيف المناهج المطبقة آنذاك في العلوم الطبيعية والفيزيائية لدراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية؛ إذ سعى ولفريد باريتو إلى توظيف علم الهندسة والعلوم الطبيعية، وحاول جيتانو موسكا تطبيق مادتي أدوات الرياضيات والفيزياء لدراسة النخبة.

على الرغم من اشتراكهم في الرؤية الموحدة لانتقاد الأنظمة الليبرالية والإيديولوجية الاشتراكية، وتناولهم لموضوع النخبة، فإن خلاصاتهم جاءت متباينة؛ إذ إن كل مفكّر ركّز على «قانون» معين؛ فولفريد باريتو ركّز على «الرواسب» المتمثلة في العواطف والحالات العقلية المتصلة بالغرائز البشرية، بينما أسس جيتانو موسكا خلاصاته على أهمية التنظيم، وقدرة النخبة على تعبئة أفرادها للهيمنة على الجماهير، وركز روبرت ميشلز على القانون الحديدي للأوليغارشية، والذي يحكم جل التنظيمات الكبرى بما فيها الدولة.

غير أن التطورات الكبرى والغنية التي ستعرفها نظرية النخبة، ستكون بعد الحرب العالمية الثانية، بعد تبني عدد من علماء السياسة لأفكار هذه النظرية وتوظيفها لدراسة النظام السياسي الأمريكي والنخبة المسيطرة فيه؛ حيث أدى الأمر إلى إغناء مقترباتها وخلاصاتها، فعلى سبيل المثال؛ أكد جيمس بيرنهام على النخبة الإدارية، وهيمنتها في المجالين الاقتصادي والسياسي. كما أبدع رايت ميلز في نحت مصطلحي؛ «نخبة السلطة» الخفية المهيمنة على مفاصل السلطة، و«النخبة الوسيطة» الظاهرة المعتبرة بمثابة غطاء لامتصاص غضب وردود أفعال الجماهير، وتلقّي مطالب باقي الفاعلين الثانويين، وكذلك انتشارها الواسع، وتوظيفها في دراسة النخب الفرعية، والنخب السياسية في دول العالم الثالث، المتميزة، عمومًا، بدور كبير للنخبة العسكرية في الميدان السياسي، وبتأثير النخب التقليدية؛ الدينية والسلالية.

*****

تدل كلمة النخبة في اللغة العربية، على المختار من كل شيء، يقال: جاء في نخبة أصحابه؛ أي خيارهم[1]. ويعبّر عن النخبة أيضًا باصطلاح الصفوة، والصفو: الصفاء من الشيء: خياره وخالصه، واصطفاه: فضله واختاره[2].

ويدل مصطلح (Elite) في اللغتين الإنجليزية والفرنسية؛ «على جماعة أو جزء منها، اختير أو نظر إليه على أنه الأفضل والأكثر نفوذًا وقدرةً»[3].

وقد اختلف عدد من المفكرين حول تعريف النخبة؛ حيث تعددت رؤاهم حول دورها وتصنيفها والمقصود بها، ومن بين التعاريف يمكن الإشارة إلى ما يلي:

- «النخبة: تتكون من ذوي النفوذ، وهم أولئك الذين يتمكنون من الحصول على ما هو كائن وموجود»[4].

- "النخبة: هي عبارة عن جماعات وظيفية ومهنية بصورة أساسية، تتمتع بمكانة اجتماعية عالية في المجتمع"[5].

- "النخبة الحاكمة: هي جماعة تحكم، ولكنها تقل عن الأغلبية فيما يتعلق بالحجم؛ فهي تضم قلة من الأفراد تسود خياراتهم على ما سواهم في حالات الاختلاف حول التفضيلات المتعلقة بالمسائل السياسية الحيوية"[6].

- "النخبة: هي الفئة القليلة من الأفراد التي لا تزيد عن 5% من السكان في مجتمع ما، وتتوافر لديها قيمة واحدة على الأقل من القيم الأساسية أكثر من بقية السكان"[7].

وعلى الرّغم من تعدد التعريفات، يمكن القول: إن النخبة، عمومًا، تدل على: "أولئك الذين يتبوؤون أعلى المناصب في التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع"[8]. بمعنى أن؛ في كل مجتمع توجد فئات متفوقة في مختلف الميادين؛ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتشكل كل فئة في ميدانها القلة

1 مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط (1-2)، نشر مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، إسطنبول، دون إشارة لسنة النشر، ص 908

2 المرجع نفسه، ص 518

3 مكي ثروت، النخبة السياسية والتغيير الاجتماعي، تجربة مصر بين 1952م- 1967م، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص 20

4 المشاط عبد المنعم، الصفوة السياسية والتنمية السياسية، مجلة الوحدة، عدد 66، مارس 1990م، ص 129

5 بوتمور جون، النخبة والمجتمع، ترجمة: جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م

6 المشاط عبد المنعم، المرجع نفسه، ص 27

7 مكي ثروت، المرجع نفسه، ص 27

8 المشاط عبد المنعم، المرجع نفسه، ص 127

المتفوقة، ويستند هذا التفوق إلى عوامل متعددة، قد تكون الثروة أو السلطة، أو العقل، أو المكانة الاجتماعية. ومن خلالها تحقق هذه الفئة تفوقًا وامتيازًا على باقي مكونات ميدانها.

تبعًا لذلك، يمكن القول: إن في كل ميدان توجد نخبة، مما يعني: أن المجتمع يتألف من نخب عدة؛ نخبة سياسية، ونخبة عسكرية، ونخبة اقتصادية، ونخبة ثقافية، ونخبة دينية، ونخبة تمارس سلطة معنوية في المجتمع. ويمكن أن تحتوي النخبة في كل ميدان نخب فرعية، على سبيل المثال؛ في إطار النخبة السياسية، يمكن الحديث عن النخبة الوزارية، والنخبة البرلمانية، والنخبة الدبلوماسية، والنخبة الحزبية.

وتجدر الإشارة إلى أن النخب في المجتمع، لا تمارس كلّها تأثيرًا سياسيًا؛ إذ يمكن أن يكون تأثيرها منحصرًا في ميدانها، ولا يمتد إلى الميدان السياسي، في حين يمكن أن يمتد تأثير بعض النخب إلى الميدان السياسي.

إن هذا الدور الذي تلعبه النخب في الميدان السياسي، كان موضوع جدال نظري بين رواد نظرية النخبة؛ حيث انقسموا في هذا الإطار إلى اتجاهين: اتجاه يدافع عن نخبة سياسية واحدة، من بين ممثليه "جيتانو موسكا" (Gaetano Mosca) الذي أطلق على الفئة الحاكمة اسم الطبقة السياسية أو الطبقة الحاكمة، و"ولفريد باريتو" الذي أطلق عليها النخبة الحاكمة، نخبة حاكمة عدد أفرادها قليل، تمارس نفوذًا سياسيًا. واتجاه يقول بوجود عدة نخب سياسية تتعايش، وتتشارك في القوة، وتحمّل المسؤولية، والحصول على الامتيازات، من بين ممثليه؛ "كارل مانهايم"، و"ريمون آرون"، و"رايت ميلز".

ويذهب هذا الأخير، إلى القول: إن النخبة تتكون من ثلاث نخب في الوقت نفسه، تتمثل في؛ العسكريين، والشركات الكبرى، لاسيما الصناعية منها، والجهاز السياسي، خاصة الجهاز التنفيذي للدولة.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي أهم الاختلافات القائمة بين رواد نظرية النخبة؟ وما هي التطورات التي عرفها التنظير النخبوي؟

الفرع الأول: السياق السياسي والتاريخي لظهور نظرية النخبة:

في نهاية القرن التاسع عشر تأصّل نقد جذري للديمقراطية الليبرالية في دولتين أوربيتين، هما (ألمانيا وإيطاليا)؛ حيث أكّد منظرون على تركيز السلطة في الأنظمة الليبرالية في يد فئة قليلة ألا وهي النخبة، كما تأصل لديهم رفض قطعي للادعاءات الماركسية ومعتقداتها بشأن الثورة الاشتراكية وحكم الطبقة العاملة.

وقد عاش الرواد الثلاث الأوائل لنظرية النخبة في إيطاليا؛ حيث ولد جيتانو موسكا (Gaetano Mosca)، وولفريد باريتو (Vilfedo Pareto)، وانتقل إليها روبرت ميشلز (Robert Michels) من ألمانيا. وعرف هذا البلد ديمقراطية ناقصة خلال هذه الفترة، كان من أهم مظاهرها؛ انتشار الفساد، والمحسوبية، وهيمنة كبار رجال الصناعة والفلاحة[9]. وعليه، انتقد هؤلاء التفاؤل الليبرالي السائد آنذاك بشأن تحقيق نظام ديمقراطي تمثيلي يحقق مزيدًا من المساواة، واعتبروا ذلك ضربًا من ضروب الخيال الإيديولوجي، ذلك أن، الحقيقة الواقعية: هي أن الحكم سيظل دائمًا تحت رحمة أقلية، وأن الديمقراطية الليبرالية تعد زيفًا يخفي صعود نخبة جديدة من الرأسماليين الصناعيين، ألا وهم البرجوازيون[10]. وقد كان لإنشاء نظام يسعى إلى تطبيق الشيوعية في الاتحاد السوفياتي عقب ثورة 1917م، أثر بالغ في تزكية وتأكيد انتقاداتهم للاشتراكية والشيوعية؛ إذ توقع المنظرون الثلاثة الزعامة الشيوعية، وحكم القلة الشيوعي. وفعلًا، سرعان ما تم إخماد المعارضين وقمع حرية الصحافة، وتحول شعار "ديكتاتورية البروليتاريا" إلى واقع ديكتاتورية سلطة الحزب[11].

تبعًا لذلك، اعتبر منظرو النخبة الأوائل "الماركسية عقيدة دينية، وأنها وقاية للبروليتاريا المضطهدة التي تعزو خطأ جميع الأنظمة السابقة من حكم النخبة إلى قوى اقتصادية، وتتجاهل الدليل الذي لا مفرَّ منه، ومفاده أن المنطق التنظيمي، والاعتماد النفسي لجمهور من المواطنين على الزعامة يجعلان من المتعذر مقاومة مثل هذا الهيكل من السيطرة"[12].

لقد كان أغلب الرواد الأوربيين الأوائل لنظرية النخبة معادين للاشتراكية والشيوعية والديمقراطية والليبرالية، ومنتقدين للقائلين بالمساواة بين البشر، ولم يجدوا أي حرج في الدفاع عن الفاشية، ودعمهم لإيديولوجيتها.

---

9 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، نظريات الدولة الديمقراطية، ترجمة هاشم أحمد محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013م، ص ص 99- 100

10 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، نظريات الدولة سياسة الديمقراطية الليبرالية، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، دبي، الطبعة العربية الأولى، 2005م، ص 149

11 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 102

12 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه، ص 148

بعد انتقال أفكار هذه النظرية إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، ركّز جيل جديد من منظري النخبة على انتقاد راديكالي، ولكن غير ماركسي للأرثوذوكسية التعددية، ونقائص الحكومة النيابية لاسيما توزيع السلطة في النظام السياسي الأمريكي، داعين إلى مساواة أكبر وديمقراطية أكثر، إضافة إلى نقدهم للماركسية والإيديولوجية الفاشية[13].

على الرغم من أن منظري النخبة انتقدوا الماركسية، ونظروا لبديل عنها، إلا أنهم فشلوا في محاولتهم للقطع مع الإطار المعرفي لنظرية الطبقة من حيث تركيزها على تقسيم المجتمع إلى شريحتين[14].

الفرع الثاني: الجذور المعرفية لنظرية النخبة:

على الرغم من أن الاهتمام بوجود فئة حاكمة يعود إلى عهد اليونان؛ حيث تطرق عدد من الفلاسفة إلى هذا الموضوع كأفلاطون وأرسطو، كما تطرّق عدد الفلاسفة والعلماء المسلمين كالفارابي وابن خلدون لعلاقة "الخاصة" بـ"العامة"، إلّا أن انتشار أفكار واضحة حول القلة الحاكمة، لم يظهر إلا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مع عدد من المفكرين الذين ركّزوا على دراسة هذه الفئة دراسة منهجية، وكان لأفكارهم تأثير كبير في ظهور نظرية النخبة، يمكن الإشارة من بينهم إلى ما يلي:

- **سان سيمون:** الذي نظر إلى المجتمع كهرم على قمته نخبة سياسية، وما دامت هذه الأخيرة توجد في كلّ مجتمع، فقد ذهب إلى أن إصلاح المجتمع يتأتى بتغيير النخبة، واقترح في هذا الصدد أن تسند مهمة الحكم إلى العلماء وكبار رجال الصناعة؛ أي ضرورة ارتكاز النخبة السياسية على المؤهلات والكفاءات[15].

- **كارل ماركس:** رغم أنه يعد محللًا طبقيًا، إلا أنه كان له تأثير كبير على كتابات رواد النخبة الأوائل؛ حيث طرح أهم الأسئلة التي أثارتها نظرية النخبة من قبيل، من يحكم؟ وما هي الخصائص العامة لهؤلاء الحكام؟ وكيف يحافظون على موقعهم؟[16].

- **نيتشه:** يمكن اعتبار الأفكار التي عبّر عنها فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) بشأن أهمية الفاعلين الاستثنائيين في تقدم الثقافة والحضارة، وتجاوز المعتقدات الماضية المألوفة والدينية، واستنكافه للجماهير، من بين الأفكار المؤثرة في رواد نظرية النخبة؛ إذ وجدت صدى واسعًا، وأثّرت في عدد من

13 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 126

14 راجع: - المشاط عبد المنعم، الصفوة السياسية والتنمية السياسية، مرجع سابق، ص 128. وبودون ريمون، وبوريكو فرانسوا، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، مجد، الطبعة الأولى، 1986م، ص ص 553- 563

15 الرضواني محمد، محاضرات في النظريات السياسية للموسم الجامعي 2011- 2012م، غير مطبوعة.

16 عارف نصر محمد، نظريات السياسة المقارنة ومنهجية دراسة النظم السياسية العربية، جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 1998م، ص 214

المفكرين، أمثال؛ المفكر الإسباني "أورتيجا ياجيست (Ortega Ygasset) الذي كان متعاطفًا مع الفاشية الإسبانية لفرانكو، كما اعتبرها بعض المفكرين تعبيرًا عن "النخبوية المتطرفة" لنيتشه[17].

- **ماكس فيبر:** إن الأفكار التي عبر عنها ماكس فيبر المتأثر بشدة بالتقاليد الثقافية الألمانية، بشأن أنماط السيطرة والمشروعية السياسية والبيروقراطية؛ حيث عبّر عن خشيته من أن تحتكر البيروقراطية الحكومية المعلومات والخبرة لتوجيه الدول، بدون أي نفوذ سياسيٍّ فعّال، كما عبّر عن شكّه في قدرة النظام الحزبي والانتخابات في إفراز سياسيين محترفين أكفاء لقيادة البيروقراطية الحكومية.

لكن رغم ذلك، أكّد أن: "خلق قيادة سياسية مسؤولة ومحافظة على النظام من قبل الزعماء البرلمانيين، يضعف، بقدر الإمكان، وقع التأثيرات العاطفية المحضة من أعلى الاستيلاءات الطغيانية على السلطة، ومن أسفل الاضطراب الناتج عن الشارع وحكم الغوغاء. فقط، القيادة المنظمة للجماهير من قبل السياسيين المسؤولين؛ فهي القادرة على ترويض الحكم غير المنظم من الشارع، والقيادة بواسطة ديماغوجيين مخاطرين"[18].

على الرغم من أنه لم يستعمل مفهوم النخبة، إلا أن فيبر أثّر في بروز نظرية النخبة، لاسيما "نظرية النخبة الديمقراطية" التي ظهرت بعد عام 1945م[19]، إلى جانب جوزيف شمبتر (Joseph Shumpter).

- **مويسي أوستروجورسكي** (Moisy Ostrogorski): يعتبر هذا المؤرخ الروسي من بين المؤثرين في أفكار رواد نظرية النخبة، باعتباره من بين الدارسين الأوائل للأحزاب السياسية؛ ففي كتابه "الديمقراطية والنظام الحزبي في الولايات المتحدة" (Democracy and the Party system in The United states) عام 1910م، أبرز التأثير الكبير الذي يمارسه المسؤولون الحزبيون في جماعات الأحزاب الأمريكية، حتى قبل الانتخابات العامة، يقول في هذا الصدد: "لم ير الكثير من الناس، على الرّغم من أنه جرى الحديث عنهم كثيرًا، واستشهد كل شخص بسلطته، وتصرف باسمه، وقطع عهودًا على نفسه، لكن كلّ شخص يتكون، بشكل خاص، من فئة السياسيين المحترفين، وحتى الآن، فإن الاتصال بين المنظمة الحزبية وجمهور الناخبين كان طفيفًا جدًا"[20].

---

17 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، نفس المرجع، ص ص 104- 105

18 Weber Max, Political writings, eds, Peter Laggman and Ronald speir, Cambridge university press, Cambridge, 1994, p.125.

نقلا عن درايزك جون س. ودنلفي باتريك، نفس المرجع، ص 107

19 المرجع نفسه، ص 108

20 Strogoski Moist, Democracy and the party System in the united states: A study inExtra-constitutional Gover - ment, New York;Macmillan, 1910,

نقلا عن درايزك جون س. ودنلفي باتريك، نفس المرجع، ص 116

وقد بلغت حدة انتقاداته للأحزاب السياسية حدَّ الدعوة إلى منعها، فملاحظة الأوليغارشية في الأحزاب الأمريكية خلال أواخر القرن التاسع عشر، والسيطرة الأرستقراطية على الأحزاب البريطانية، دفعته إلى انتقاد الأحزاب السياسية، لكن دون أن يعزو مشاكلها إلى الحكومة الديمقراطية في حد ذاتها[21].

إن مثل هذه الأفكار تعد، دون شكّ، قريبة جدًا من الأفكار التي عبر عنها رواد نظرية النخبة الكلاسيكية، لاسيما روبرت ميشلز[22].

على الرغم من أن أغلب الدراسات تذهب إلى اعتبار أوستروجورسكي من المؤثرين في ظهور نظرية النخبة، إلا أنه، في حقيقة الأمر، يمكن اعتباره من المنظرين الأوائل لنظرية النخبة إلى جانب الرواد الثلاث؛ فخلاصاته بشأن الأحزاب السياسية في الأنظمة الديمقراطية الليبرالية، لا تقل أهمية عن خلاصات روبرت ميشلز، ولعل انتماءه إلى الاتحاد السوفياتي، قد يكون من الأسباب الرئيسية لضعف انتشار أفكاره وانحسارها، ولإقصائه من دائرة منظري النخبة.

الفرع الثالث: نظرية النخبة الكلاسيكية: الرواد المؤسسون:

تبلورت أفكار نظرية النخبة في بداية القرن العشرين على يد ثلاثة علماء اجتماع أوربيين.

الفقرة الأولى: ولفريد باريتو: "التاريخ هو مقبرة الأرستقراطيات":

ولفريد باريتو عالم اقتصاد واجتماع إيطالي، تأثر في صياغة أفكاره حول النخبة بملاحظته لواقع إيطاليا خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبديمقراطية إيطاليا والظواهر التي أفرزتها؛ من فساد، ومحسوبية، وسيطرة رجال الصناعة وكبار أصحاب الأراضي، والنزاع المتشدد بين الطبقات الاجتماعية.

اعتنق في الثلاثينيات من عمره جناح اليسار، لكن غير الماركسي، مما تسبب له في العديد من المشاكل خاصة مع الشرطة، أرغمته على مغادرة إيطاليا صوب سويسرا، حيث عمل كأكاديمي، غير أنه في عام 1900م حدث تغيير مثير في حياته؛ إذ تحوّل إلى "جناح اليمين" والنخبوية المعادية للديمقراطية[23].

21 المرجع نفسه، ص 117

22 روبرت ميشلز عالم اجتماع، ولد بألمانيا في 9 يناير 1876م، وهاجر إلى إيطاليا حيث توفي عام 1936م. يعد من الرواد الأوائل لنظرية النخبة، من خلال دراسته للحزب الاشتراكي الألماني دراسة سوسيولوجية في بداية القرن العشرين، والتي نشرها في مؤلف تحت عنوان «الأحزاب السياسية» عام 1911م.

23 المرجع نفسه، ص ص 100- 101

إذا كانت الأساليب المتبعة في العلوم الطبيعية، اكتسبت مكانة هامة في أواخر القرن التاسع عشر، فإن باريتو دافع عن إمكانية تحليل الظواهر الاجتماعية بنفس الأساليب، وأكد أن علم الهندسة والعلوم الطبيعية هما أفضل نموذجين للعلوم السياسية. ومن ثم، ادّعى أن أفكاره بشأن النخبة استندت إلى أبحاث تجريبية، وقامت على منهجية محددة متميزة عن التحليل النظري الفضفاض، كالذي اتبعه الماركسيون المعاصرون، ومتميزة عن التحليل المؤسساتي المعتمد من قبل المدافعين عن الديمقراطية الليبرالية[24].

بناءً عليه، اعتبر أن المجتمع ينقسم إلى مجموعتين رئيسيتين، بغض النظر عن نظام حكومته:

- مجموعة أولى؛ تمثلها نخبة مسيطرة على السلطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من خلال امتلاكها للثروة، والمركز الاجتماعي، والذكاء، والمكر السياسي والاقتصادي، وتتمثل في أولئك الأفراد الذين يملكون أعلى مؤشرات التفوق والامتياز في أي نشاط، سواء كان ذلك في التعليم، أو الصناعة، أو الأعمال الكبيرة، أو في مجال سرقة القطارات، أو صيد السمك[25]؛ ففي جميع مجالات المجتمع هناك نخبة، حتى داخل شبكة العاهرات هناك نخبة.

ويقسم هذه النخبة، إلى: نخبة غير حاكمة؛ تتمثل في القلة القليلة من الأفراد المتفوقين في الأنشطة التي يمارسونها، والذين استطاعوا الوصول إلى أعلى مراتب التسلسل المهني، والذين لا يلعبون أي دور في الحكم. ونخبة حاكمة مكونة من جميع الزعماء الذين يلعبون، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، دورًا في حكم المجتمع، باعتبارهم يؤثرون في الحياة السياسية، ويمارسون نفوذهم في المجال السياسي، ويمكن أن تتشكل من وزراء أو أعضاء منتمين إلى أحزاب المعارضة، كما يمكن أن تضم القيادات النقابية والعسكرية، ورجال الصناعة الذين يؤثرون في عملية صنع القرار.

- ومجموعة ثانية: يمثلها جمهور عريض من المواطنين الآخرين، مشوّش ومتقلب السلوك، ومستبعد من التأثير في السياسة العامة؛ لعدم امتلاكه لوسائل التأثير والضغط.

وذهب في كتابه "عقل المجتمع" (The Mind Of Society) إلى أن أغلبية الناس تحكمهم، في أغلب الأوقات، عواطف لاعقلانية، ويعيشون نوبات من الهيستيريا والرعب والحماسة، تسهّل عملية تلاعب النخب المؤهلة بعواطفهم؛ لذلك حتى في حالة حدوث الثورة ونجاحها، فإن الحكم يؤول في النهاية إلى نخبة مختلفة، وتترك الجماهير الضعيفة كما كانت تعيش في النظام السابق، فقيام نظام اشتراكي في الاتحاد

24 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، نظريات الدولة، المرجع نفسه، ص 155

25 المرجع نفسه، ص 146

السوفياتي بعد ثورة 1917م، اعتبر من طرف باريتو، وباقي منظري النخبة الأوائل أكبر دليل على فرضية حتمية حكم النخبة[26].

وقد استخدم باريتو مفهوم الرواسب، والذي يتمثل بالعواطف والحالات العقلية المتصلة بالغرائز البشرية، لتفسير سيطرة نخبة، واختفاء نخبة، وظهور نخبة أخرى. وقسّمها إلى مجموعتين:

- **المجموعة الأولى:** تضم رواسب تعكس الميل إلى التأمل والتفكير.

- **المجموعة الثانية:** تضم رواسب تعكس الميل إلى البقاء، والاستقرار، وتعزيز المراكز التي يتم الوصول إليها.

ويؤثر توزيع الرواسب تأثيرًا كبيرًا في المجتمع، فقد تسود لدى الأفراد رواسب النوع الأول، ويشكلون بذلك أهل المكر والذكاء الذين يحكمون عن طريق الرضا العام، والمساومة، والحلول التوفيقية، واختراع الإيديولوجيات.

وقد تسود لدى الآخرين رواسب النوع الثاني، فيشكلون بذلك أهل القوة والمواجهة الفورية للأزمات، ويلجؤون إلى استخدام وسائل العنف لمواجهة المعارضة وفرض النظام العام. والمثل الأعلى بالنسبة لباريتو: هو توفر النوعين من الرواسب لدى نخبة معينة.

وقد اعتمد هذا المفهوم أيضًا لتصنيف النظم السياسية، وقسّمها إلى؛ نظم تحكمها نخب تسود عندها رواسب النوع الأول، ونظم تسود عندها رواسب النوع الثاني[27].

وقد قدم ولفريد باريتو طرحًا متميزًا بشأن دوران النخبة؛ إذ اعتبر هذه الأخيرة تظل لسنوات عديدة دون تغيير في تركيبها العام، على الرغم من تغير أفرادها باستمرار؛ لذلك تعرف تحجرًا بفعل الوراثة، والتفاوت في الثروة[28].

---

26 درايزك جون س ودنلفي باتريك، نظريات الدولة الديمقراطية، مرجع سابق، ص ص 100- 102

27 راجع:

- مكي ثروت، النخبة السياسية والتغيير الاجتماعي، تجربة مصر بين 1952- 1967م، مرجع سابق، ص 33، والمشاط عبد المنعم، الصفوة السياسية والتنمية السياسية، مرجع سابق، ص 134، وعارف نصر محمد، نظريات السياسة المقارنة ومنهجية دراسة النظم السياسية العربية مرجع سابق، ص ص 215- 216

28 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 111

إذا كانت النخبة غير مهددة من أي نخب مضادة، فإن هذا التحجر لا ينكشف، غير أن المجتمعات الحديثة تتميز بتواجد نخب مضادة، فعلى سبيل المثال؛ في أوائل القرن العشرين مثلت الأحزاب الاشتراكية والحركة العمالية نموذجًا للنخب المضادة بقيادة عمال ومفكرين معارضين.

ولكون النخبة الحاكمة عرضة دائمًا للتحدي أو الإزاحة، باعتبار: "التاريخ هو مقبرة الأرستقراطيات"، فإنها تسعى جاهدة إلى تقويض تأثير النخبة المضادة، والحدّ منه بطرق مختلفة، يركز باريتو في هذا الإطار على ما يلي:

- اختيار النخبة المضادة زميلًا جديدًا لهم عن طريق الرشوة.

- استمالة البعض منهم، الأكثر تهديدًا، أو الزعماء الموهوبين من النخبة المضادة إلى جانبهم.

- تشجيع النخبة الحاكمة للعناصر الأكثر نشاطًا من الجماهير، والنخب المضادة على مغادرة مجتمعها إلى مجتمعات أخرى بشكل نهائي.

- التشجيع على الهجرة أو النفي الإجباري للثوار المحتملين[29].

إذا كان الأمر كذلك؛ فإن النخبة الحاكمة عندما تغيب عندها إرادة عرقلة النخب المضادة، وقمع العمليات المساندة لهذه النخب في المجتمع، تصبح ضعيفة ومنحطة.

ويبرز انحطاط النخبة الحاكمة من خلال إشارتين أساسيتين:

- "تصبح النخبة الهابطة ألطف، وأضعف، وأكثر إنسانية، وأقلّ ملائمة للدفاع عن سلطتها"[30].

- "من الناحية الأخرى، لا تفقد جشعها وطمعها لصالح الآخرين، ولكنها تميل، بقدر الإمكان، إلى زيادة استيلاءاتها غير القانونية، وتستبيح اغتصاب الإرث القومي"[31].

ولتفادي هذه الوضعية الضعيفة، ومواجهة التهديدات الموجهة إليها، يمكن للنخبة الحاكمة اللجوء إلى القمع السافر. ومادامت الدول الليبرالية تعرف انتشار التعددية السياسية، وحرية التعبير، ووسائل الإعلام

29 المرجع نفسه، ص 112

30 نفسه.

31 نفسه.

الحرة، فإن لجوء النخبة الحاكمة إلى قمع المعارضة بشكل علني يعد أمرًا مكلفًا جدًا، ولتجنب ذلك، يمكن لهذه النخبة اتّباع ثلاث عمليات مهمة، وهي:

- إيجاد النخبة الحاكمة لبديل من صفوفها؛ لتعويض أبناء أعضاء النخبة عندما يتبين أنهم ورثة يائسون.

- استيعاب زعماء النخبة المضادة المحتملين في البنية الراسخة للنخبة الحاكمة.

- تجنيد أشخاص من نخبة الجمهور في الدرجات السفلى للنخبة، من خلال الزواج، والترقيات داخل شركات ومنظمات الدولة[32].

الفقرة الثانية: جيتانو موسكا: المنطق التنظيمي وحتمية النخبة:

جيتانو موسكا عالم اجتماع إيطالي، ساند في شبابه موسيليني، ودعم اغتصابه للسلطة عام 1923م، ولم يكن موقفه هذا إلا ترجمة لمعارضته الشديدة للديمقراطية الليبرالية، إلا أنه عارض، فيما بعد، إلغاء هذا الزعيم للسيطرة البرلمانية على الحكومة عام 1926م، الذي شكل بداية مراجعاته التي ستتوج في أواخر عمره بدفاعه عن المشروعية، وانتقاد النظام الفاشي[33].

وعلى غرار عدد من علماء الاجتماع في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، آمن بإمكانية تحليل الظواهر الاجتماعية بنفس أساليب العلوم الطبيعية، واعتبر مادتي الرياضيات والفيزياء أفضل نموذجين لعلم السياسة[34].

أعلن في كتابه "الطبقة الحاكمة" (The Ruling Class)، أنه في أي نظام سياسي توجد طبقتان: نخبة حاكمة قليلة العدد؛ تحتكر السلطة، وتؤدي كافة الوظائف السياسية. وطبقة محكومة كثيرة العدد؛ تزوِّد الأولى بأسباب الحياة المادية، وبالأدوات اللازمة لبث الحياة في التنظيم السياسي.

إن وضع النخبة، حسب موسكا، ناتج عن حيازة أعضائها لشيء ما يقدّره المجتمع، كالثروة، أو المكانة الدينية، إلا أن الفضل في قوة وسيطرة النخبة يعود، بالدرجة الأولى، إلى قدرتها التنظيمية الكبيرة؛ أي إلى قدرتها على التماسك في مواجهة القوى الأخرى في المجتمع.

32 المرجع نفسه، ص 113

33 المرجع نفسه، ص 104

34 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، نظريات الدولة، مرجع سابق، ص 155

ويرى جيتانو موسكا، أن صغر حجم الصفوة، ووضوح وسائل الاتصال المتوفرة لديها، وسهولة تدفق المعلومات بين أعضائها، يمنحها هذه القدرة التنظيمية العالية؛ لذلك تستطيع وضع السياسات واتخاذ القرارات بسرعة، والاستجابة الفورية للظروف المتغيرة، والظهور بمظهر التضامن الكامل في أقوالها وأفعالها[35].

إن المنطق التنظيمي، والاعتماد النفسي للجماهير على الزعامة، يجعلان أمر مقاومة هذا التنظيم من السيطرة متعذرًا؛ ذلك أن وجود طبقة حاكمة، حسب موسكا، يعدّ من بين "الحقائق والاتجاهات الثابتة الموجودة في جميع الأنظمة السياسية، والتي تتم رؤيتها بالعين المجردة"[36]، و"تاريخ جميع المجتمعات، في الماضي والمستقبل هو تاريخ طبقاتها الحاكمة، إذن، ستظل هناك دائمًا طبقة حاكمة، وبالتالي، سيظل الاستغلال موجودًا"[37].

أمّا الجماهير؛ فهي غير منظمة ومشوشة، باعتبارها تضم أفرادًا ليس لديهم هدف مشترك، أو نظام اتصال معروف، أو سياسات متّفق عليها؛ ذلك أن الجماهير تظل منشغلة بالحاجات والمطالب الفورية، يقول موسكا في هذا الصدد: "إن رغبتهم الأولى والطبيعية، والأكثر تلقائية، أن يتحكم فيهم بأقل ما يمكن، أو أن يقدّموا أقل ما يمكن من التضحيات للدولة"[38].

لقد اتّسمت نظرة موسكا للجماهير بالاحتقار والاستخفاف؛ إذ أشار في كتابه إلى أنه: "حتى في الطبقات الدّنيا، يحصل كل فرد، على المدى البعيد، على رغيف خبز وزوج، وعلى الرغم من أن الخبز يكون داكنًا تقريبًا، ويكتسب بالمشقة، والزوج غير جذاب أو غير مرغوب"[39].

إن وجود طبقة حاكمة في المجتمع يعتبر أمرًا حتميًا، ولا يمكن لأي مجتمع أن ينجو من هذه المعادلة، ومهما ادّعت الإيديولوجيات إمكانية بناء مجتمع خال من الطبقات، فإن الأمر يظل طوبًا، ومجرد خرافة أخرى تدافع عنها نخبة مضادة ناشئة هي نخبة الطبقة العاملة الجديدة، وتنشرها بهدف السيطرة والحكم.

---

35 راجع:

- المشاط عبد المنعم، المرجع نفسه، ص ص 132- 133

- مكي ثروت، المرجع نفسه، ص ص 29- 31

36 Mosca Geatano, The Rulling Class, translated and edited by A. Living Ston,1939, p.50.

نقلًا عن دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه، ص 148

37 المرجع نفسه

38 المرجع الأصلي لجيتانو موسكا، ص 411، نقلًا عن: درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 101

39 المرجع الأصلي لجيتانو موسكا، نقلًا عن المرجع نفسه، ص 30

وكما عارض الإيديولوجية الشيوعية، عارض، كذلك، الديمقراطية الليبرالية، واعتبر النظام التمثيلي مجرد زيف للتغطية على صعود نخبة جديدة من الرأسماليين الصناعيين ألا وهم البرجوازيون.

غير أنّ موسكا في سنوات عمره الأخيرة، أقرّ بمزايا السياسة التمثيلية التي سخر منها في شبابه، باعتبار الأنظمة التمثيلية الليبرالية، تسمح بتمثيل واستيعاب المصالح على نطاق واسع، وتساهم في منع بروز استبداد بيروقراطي[40].

الفقرة الثالثة: روبرت ميشلز: القانون الحديدي للأوليغارشية:

انتقل عالم الاجتماع روبرت ميشلز من وطنه الأم ألمانيا إلى إيطاليا، حيث تقابل مع رائدي نظرية النخبة باريتو وموسكا في عام 1910م، واعتبر من أشد المعارضين للماركسية من ضمن رواد نظرية النخبة الكلاسيكية؛ فقد كان في الأصل اشتراكيًا متطرفًا، ومن أتباع المذاهب النقابية لجورج سوريل (Georg Sorel) الاشتراكي الفرنسي، الذي مجّد الإضرابات التلقائية والعنيفة للجماهير كطرق رئيسية للثورة.

غير أنه في عام 1911م، غيّر انتماءه ومواقفه، التي وجدت طريقها إلى العلن بعد نشر كتابه "الأحزاب السياسية"، وعارض الحرب العالمية الأولى. وقد أعلنت الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية الأوربية تأييدها لبلدانها في دخولها هذه الحرب التي شكلت مذبحة للطبقات العاملة، والتي لم يكن من الضروري دخولها، كما هو الشأن لإيطاليا وبلدان أوربية أخرى، مما شكّل له دافعًا قويًا لمزيد من معارضة الأنظمة الاشتراكية والليبرالية معًا، ولدعم النظام الفاشي؛ حيث أعلن روبرت ميشلز في العشرينيات من القرن العشرين، دعمه للفاشية وزعيمها في إيطاليا بنيتو موسيليني، وقبل من هذا الأخير وظيفة جامعية بارزة[41].

في كتابه "الأحزاب السياسية" اعتبر روبرت ميشلز أن جميع الأحزاب، بما فيها تلك التي تدعي اعتناقها الديمقراطية، تكون أوليغارشية في تنظيمها الداخلي، وتعرف سيطرة نخبة قيادية صغيرة، فدراسته للحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني الذي كان حزبًا كبيرًا وقويًا، دراسة منهجية تجريبية، قادته إلى جملة من الخلاصات، أهمها؛ أن هذا الحزب، الذي يدّعي خدمة الطبقة العاملة، وتمثيل الناخبين العاديين، كان يخدم في حقيقة الأمر مصالح زعمائه، وأن ما يعرفه هذا الحزب ينطبق على جميع المنظمات الجماهيرية الواسعة النطاق، بما فيها الدولة، التي تخضع لحكم القلة و"للقانون الحديدي للأوليغارشية" (Iron Law of

40 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه، ص 150

41 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص ص 103- 104

oligarchy)، الذي مفاده: أن القائد الذي يحصل على السلطة السياسية، ويعتاد على ممارستها، ويصعب عليه التّخلي عنها، فيستخدم بذلك السلطة من أجل البقاء والاستمرار فيها[42].

إن التنظيم المعقد للأحزاب الجماهيرية وحجمها الكبير، "يخلقان الحاجة إلى زعماء ذوي خبرة واستقرار أثناء توليهم مناصبهم، ومتخصصين في إدارة المهام"[43]؛ فأي منظمة تحتاج إلى قيادة، مما يسمح بمنح قوة ومزايا للقادة بشكل يتعذر معه مراقبتهم ومحاسبتهم من طرف الأنصار، وتنحصر قيادتها في أيدي عناصرها السياسية والبيروقراطية بحكم قدرتهم على توجيه أنشطتها المختلفة. ويذهب ميشلز في هذا الإطار إلى أن: "من يقول بالتنظيم، يقول بالنزعة إلى الأوليغارشية؛ ففي كل منظمة، سواء كان المقصود حزبًا أو اتّحادًا، يظهر الميل الأرسقراطي بطريقة واضحة جدًا.

إن التركيب الداخلي للمنظمة، يثير في الجماهير المنظمة تغييرات خطيرة، بينما يعطي هذا التركيب للمنظمة بنية قوية متماسكة، ويعكس تمامًا مواقف الزعماء والجماهير فيما يخص قضية الاحترام والعلاقات المتبادلة فيما بينهم. من هنا، نرى أن للتنظيم مفعولًا مؤثّرًا في تقسيم كل حزب، أو كل نقابة مهنية، إلى أقلية حاكمة وأغلبية محكومة"[44].

وقد لجأ ميشلز إلى توظيف أفكار من سيكلوجية الجماهير التي كانت سائدة آنذاك؛ لتبرير ادّعائه بشأن عجز الجماهير من الناحية النفسية على معالجة قرارات معقدة؛ فالجماهير بحاجة إلى زعماء قادرين على تعبئتها للتخلص من اللامبالاة، واللاتنظيم، وتنظيمهم. غير أن المنظمة بمجرد أن تتشكل، يظهر زعماء داخلها يتمتعون بمستويات أعلى من حرية التصرف، وتحقيق مصالحهم وتعزيزها بدل خدمة مصالح الجماهير. وهكذا ينشأ التباعد والانفصال بين القلة المسيطرة والجماهير[45]، بشكل يؤدي إلى تمتع الزعماء بسلطة توجيه الأنشطة التنظيمية لخدمة مصالحهم؛ لذلك، اعتبر ميشلز أن أي ثورة ماركسية، ستولِّد بشكلٍ حتمي قلة حاكمة جديدة، "قد ينتصر الاشتراكيون، ولكن ليس الاشتراكية، التي سوف تفنى في لحظة انتصار أتباعها"[46].

---

42 راجع: المشاط عبد المنعم، المرجع نفسه، ص 134. وعارف نصر محمد، المرجع نفسه، ص ص 215- 216. ودرايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص ص 103- 104

43 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه، ص 149

44 ميشال روبرت، الأحزاب السياسية، ترجمة منير مخلوف، دار أبعاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، ص 28

45 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه.

46 Michels Roberto, Political Parties, New York, dover, 1959, p. 391.

نقلًا عن دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه، ص 149

تبعًا لذلك، دافع ميشلز في محاضراته عام 1927م، عن أهمية زعيم كاريزمي لقيادة الجماهير، وإشراكها في المشاريع الضخمة، كآلية وحيدة للتغلب على الطبيعة الأوليغارشية المحافظة للمنظمات الحديثة الكبرى[47].

الفرع الرابع: نظرية النخبة الحديثة: الرواد المحدثون في الولايات

المتحدة الأمريكية:

بعد انهزام الفاشية في الحرب العالمية الثانية، أصبحت نظرية النخبة يتيمة في أوربا، وسيشكل انتقالها إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد هذه الحرب، وتبني أفكارها من طرف عدد من المفكرين الأمريكيين، محطة فاصلة بين نظرية النخبة الكلاسيكية، ونظرية النخبة الحديثة في أمريكا، حيث أصبحت أبحاثها أكثر تجريبية ومنهجية، كما أصبحت أكثر التصاقًا باليسار المتطرف منذ الخمسينيات من القرن الماضي.

ومن الرواد الأوائل الممثلين لنظرية النخبة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ جيمس بيرنهام (James Burnham)، ورايت ميلز (Charles Wright Mills).

الفقرة الأولى: جيمس بيرنهام: النخبة الإدارية الجديدة:

على غرار باريتو، اعتبر بيرنهام الماركسية إيديولوجية ذاتية الخدمة لنخبة طبقة عاملة مضادة، اعتمادًا على ملاحظته للتجربة الفاشية الأوربية، وفترة تطبيق الخطة الجديدة الأمريكية (New Deal)، والتي طبقها روزفلت لمواجهة آثار الأزمة الاقتصادية العالمية لعام 1929م، وتعقّبه للإصلاحين الاقتصادي والاجتماعي، واعتمادًا على أفكار منظري النخبة الكلاسيكية، خاصةً موسكا وباريتو، إضافةً إلى الأفكار الماركسية، ذهب في كتابه "الثورة الإدارية" (The Managerial Revolution) الصادر عام 1941م، إلى اعتبار أن النخبة الإدارية الجديدة، كانت بصدد تولي السيطرة على جميع الأنظمة السياسية المعاصرة؛ حيث انتقلت السيطرة داخل الشركات الكبرى، من أصحاب رؤوس الأموال الجريئين، إلى مديري الأعمال الذين يقومون بإدارة الشركات نيابة عن حاملي أسهم غير فعالين، وانتقلت السلطة داخل الحكومة من أيدي زعماء سياسيين إلى رجال اللجان؛ فالهيكل الاقتصادي الرأسمالي سيعرف سيطرة طبقة جديدة من المدراء الإداريين، والمدراء التنفيذيين للشركات الكبيرة، ليس فقط على الاقتصاد؛ بل على الحكومة والمجتمع كذلك[48].

47 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص ص 103- 104

48 المرجع نفسه، ص ص 108- 109

إن إيطاليا الفاشية، والاتحاد السوفياتي الشيوعي، والبرنامج الجديد الأمريكي، وصلوا إلى "تجميع السلطة في أيدي نخبة لا وجه لها ولا شخصية، تستند إلى تنظيم جيد"[49].

وقد تعرّض بيرنهام لنقد شديد من قبل رايت ميلز، واعتبره "ماركس للمدراء"، باعتباره نظر لهيمنة النخبة الإدارية، لاسيما أنه في مرحلة من حياته كان من أنصار تروتسكي، غير أنه في مرحلة لاحقة، سيعتبر من الماركسيين الذين خاب أملهم؛ حيث تحوّل إلى اعتناق أفكار يمينية، وأصبح محافظ حرب باردة[50].

الفقرة الثانية: رايت ميلز: "نخبة السّلطة" الجانب المظلم والسّرّي للدّولة:

ركّز رايت ميلز على نقد جذري للحكم في أمريكا، واهتم بشكل كبير بجذور ومنحدرات نخب المجتمع، ودورها الفعلي، وانتقد في هذا الإطار جيتانو موسكا، حيث يقول: "لم يكن في أطروحتي أنه طوال كل عهود التاريخ الإنساني، وفي جميع الأمم، شكلت نخبة ذات نفوذ، طبقة حاكمة، وأقلية مبدعة كل أحداث التاريخ، فمثل هذه الروايات، عندما تفحص بدقة، عادة ما يتضح أنها مجرد تكرار للمعنى بلا فائدة، وحتى عندما لا تفحص، تكون عمومًا وبجملتها عديمة الفائدة في محاولة لفهم تاريخ الحاضر"[51].

وقد طوّر رايت ميلز مفهوم "نخبة السلطة (Powerelite)، التي تتكون من الشركات الكبرى، والعسكريين، والسياسيين المحيطين بالرئيس الأمريكي، وهذه المجموعات هي المسيطرة على القرارات الرئيسية المتعلقة بصنع التاريخ في أمريكا، وبالمقابل، تترك نطاقًا واسعًا من القضايا المحلية الأقل أهمية لمعالجة "المستويات الوسطى" من السلطة مثل: الكونجرس، وحكومات الولايات[52].

فمن خلال تركيزه على دراسة الشركات الغنية، وذوي الرواتب العليا من الطبقة الوسطى، والتسلسل الهرمي للنقابات العمالية، والسياسيين المنتخبين، والجيش، والظروف المتغيرة لنخبة الدولة العليا، دراسة تجريبية تتجاوز الوصف، أكّد أن الولايات المتحدة الأمريكية بعد عام 1945م، عرفت تحولات حاسمة على مستوى البيروقراطية والتقنيات الحكومية، أصبح معها "منصب المدير السياسي، والشركات الغنية،

49 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه، ص 153

50 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 109

51 Mills C. Wright, The power Elite, Oxford university Press, New York, 1956, p.2

نقلًا عن درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 109

52 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، المرجع نفسه، ص 154

والجيش المسيطر مع بعضها كنخبة السلطة، والسلطات المركزية الموسعة التي يترأسونها، قد سيطرت تدريجيًا على الموازين القديمة، وأعادتها الآن إلى مستويات السلطة الوسطى"[53].

إن وراء العملية السياسية النشطة، التي تعرفها أمريكا، المؤسسة من قبل الكونجرس والأحزاب السياسية والدولة والحكومات الإقليمية، توجد سلطة حقيقية لصنع القرارات الكبرى، تشكلها نخبة السلطة المكونة من الشركات الكبرى الغنية، والعسكر الذي يشكل الرئيس الأمريكي قائده الأعلى، والسياسيين المحيطين برئيس الدولة، ولا تمنح أي اعتبار للممثلين المنتخبين في مجال صناعة السياسات العامة والقرارات، ولا للمواطنين.

ويعتبر ميلز المستويات الوسطى للسلطة بمثابة طبقة وسادة، تمتص وجهات النظر والتأثير الشعبي، كما يعتبر العملية السياسية الظاهرة مجرد استعراض سياسي شبيه بما يفعله مشاهير هوليود[54].

وعليه، يمكن اعتبار طبقة المستويات الوسطى للسلطة، بمثابة غطاء تستغله نخبة السلطة، وتموه من خلاله مكامن القوة الفعلية؛ فنخبة السلطة "تطور هيبة عازلة وتزرع أساطير" حول مواقع القوة الحقيقية[55]؛ حيث تدعم سيطرتها بجهد إيديولوجي، انتشر بشكل كبير لتبرير تحول المجتمع الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية، يقول رايت ميلز في هذا الصدد: "في السنوات الثلاثين الأخيرة، كانت هناك إشارات لحالة اندماج بين النخبة العسكرية والسياسية والاقتصادية، وقد بدؤوا البحث، كما يفكر الرجال والنساء الأقوياء دائمًا، عن دعم قوتهم بعباءة المنزلة الاستبدادية"[56].

إن الأفكار التي قدمها كل من جيمس بيرنهام ورايت ميلز، أثرت على عدد من المفكرين داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها.

وقد عرف التنظير في مجال النخبة تطورات مهمّة، لاسيما بعد الموجة الثالثة للديمقراطية، وبعد انهيار المعسكر الشرقي، وتحوّل الكثير من الدول إلى الليبرالية، بشكل أغنى مقتربات هذه النظرية، وجعلها متصالحة بشكل أكبر مع الإيديولوجية الليبرالية، ومن بين المساهمات الحديثة المعبرة عن هذا التصالح، دراسة كل من مايكل بيرتون (Michael Burton)، وجون هغلي (John Higley) المركزة على علاقة

---

53 Mills C. Wright, The power Elite, op. cit., p.296.

نقلًا عن درايزك جون س ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 120

54 درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص ص 122- 123

55 نفسه.

56 Mills C. Wright, Ibid., p.244.

بالاعتماد على درايزك جون س. ودنلفي باتريك، المرجع نفسه، ص 122

النخبة بالديمقراطية، ذهبا فيها إلى وجود ثلاثة أنماط من بنية النخبة: نخبة غير موحدة، ونخبة موحدة إيديلوجية، ونخبة موحدة بالتراضي.

تتميز النخبة الأخيرة بخاصيتين أساسيتين؛ أولاهما: بنيوية متمثلة في "بنية متكاملة من التفاعل الشامل تقريبًا"، وثانيتهما: ثقافية متجلية في "إجماع ضمني بدرجة كبيرة حول قوانين ومبادئ السلوك السياسي، يؤدي إلى موالاة مقيدة"[57]، وهذه النخبة، هي وحدها فقط، يمكن أن "تنشئ نظامًا مستقرًا، وقابلًا للتطور ليصبح ديمقراطية حديثة"[58].

هذا النمط من النخبة المتحدة بالتراضي، يبرز بسرعة من خلال "تسوية" تقوم على ما يشبه التعاقد بين النخبة، أو يبرز، بشكل أكثر تدرجًا، من خلال عملية تقارب قائمة على "تشكيل ائتلافات انتمائية عريضة، إضافة إلى تقبل النخبويين المنشقين والعدائيين تدريجيًا لمشروعية النظام الديمقراطي، واعتدال المواقف الإيديولوجية والسياسية المستقطبة"[59].

الفرع الخامس: حدود نظرية النخبة:

على الرغم من النجاح الذي حققته نظرية النخبة، والانتشار الواسع الذي عرفته الدراسات النخبوية في علم الاجتماع، وغزوها الكبير للعلوم السياسية وفروعها، وتواتر المقاربات النخبوية وتنوعها، إلا أنها لم تسلم من انتقادات رافقت ظهورها وتطورها، يمكن الإشارة من بينها إلى ما يلي:

- انتقادات رواد نظرية النخبة الكلاسيكية للماركسية: تبقى مبهمة في نظر الكثير من المفكرين؛ إذ لم يطرح الرواد الثلاث افتراضات سهلة التجريب بشأن تجاوزهم للأفكار الماركسية[60].

- إن التشبث بحتمية حكم النخبة، وتحوّل التنظيمات السياسية، سواء الليبرالية أو الاشتراكية، إلى هياكل تسيطر عليها قلة من طرف رواد نظرية النخبة، تعتبر فكرة أقرب إلى الإيديولوجيا منها إلى العلمية، وأكثر مبالغة، حيث تحوّلت إلى فكرة اعتقادية نهائية لا تقبل الجدال والنقاش.

- إن ادعاء رواد نظرية النخبة الكلاسيكية بشأن تطبيق أساليب وأدوات العلوم الطبيعية لدراسة النخبة، لم يظهر له تأثير كبير في دراساتهم وأفكارهم، وفشلوا في إمكانية تطبيق هذه الأساليب لدراسة النخب.

57 دايموند لاري، مصادر الديمقراطية ثقافة المجموع أم دور النخبة؟ ترجمة سمية فلو عبود، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م، ص 13

58 نفسه

59 المرجع نفسه، ص ص 13- 14

60 دانليفي باتريك وأوليري بريندان، نظريات الدولة، مرجع سابق، ص 155

- ضعف التجريب والصرامة العلمية عند منظري النخبة، خصوصًا الكلاسيكية، بشأن تحديدهم للنخبة الحاكمة، باستثناء روبرت ميشلز، الذي قام بأبحاث منهجية في هذا الإطار.

- ركز منظرو النخبة الأمريكيون على التزامهم بأسلوب وضعي، غير أنهم وجدوا صعوبات في متابعة تقديم تفسيرات تجريبية ملائمة لممارسة السلطة، مما دفع بهم إلى التركيز على دراسة وكلاء السلطة بشكل تجريبي، عوض التركيز مباشرة على ممارسة السلطة ذاتها، لاسيما التركيز على تحليل الخلفيات الاجتماعية، وترابطات جماعات النخبة المختلفة، كتقديم إحصائيات كمية حول الوزراء والبرلمانيين، والبيروقراطيين، ورجال الأعمال، والنخبة النقابية والحزبية[61].

إذا كانت نظرية النخبة، في بداية تبلورها في أروبا، ارتبطت أشد الارتباط بالمجال السياسي والإيديولوجي، سواء تعلّق الأمر بمناصرة أهم روادها الأوائل للفاشية في إيطاليا، أو بمواقفهم الجذرية الرافضة للتفسيرات الليبرالية، والتنبؤات الماركسية، أو بسعي منظريها لبناء إطار نظري منافس للنظرية الماركسية، بشكل أثّر على افتراضاتها وتعميماتها، فإن تخلي روادها المحدثين عن النقد الأرثوذكسي للإيديولوجيات، فتح آفاقًا واسعة أمام انتشار هذه النظرية، وتوظيفها لدراسة الأنظمة السياسية، لاسيما بعد تراجع المقاربات القانونية والمؤسساتية بعيد الحرب العالمية الثانية، وسعي علماء السياسة والمؤسسات البحثية في الدول الغربية إلى بناء مقاربات، وتطوير نظريات، قادرة على تفسير دول العالم الثالث وخصوصياتها.

61 المرجع نفسه، ص 159

قائمة المصادر والمراجع:

- بودون ريمون، وبوريكو فرانسوا، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، مجد، الطبعة الأولى، 1986م.
- بوتمور جون، النخبة والمجتمع، ترجمة: جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م.
- دايموند لاري، مصادر الديمقراطية ثقافة المجموع أم دور النخبة؟ ترجمة سمية فلو عبود، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م.
- دانليفي باتريك وأوليري بريندان، نظريات الدولة سياسة الديمقراطية الليبرالية، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، دبي، الطبعة العربية الأولى، 2005م.
- درايزك جون س. ودنلفي باتريك، نظريات الدولة الديمقراطية، ترجمة هاشم أحمد محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013م.
- المشاط عبد المنعم، الصفوة السياسية والتنمية السياسية، مجلة الوحدة، عدد 66، مارس 1990م.
- مكي ثروت، النخبة السياسية والتغيير الاجتماعي، تجربة مصر بين 1952م- 1967م، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005م.
- مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط (1-2)، نشر مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، إسطنبول، دون إشارة لسنة النشر.
- عارف نصر محمد، نظريات السياسة المقارنة ومنهجية دراسة النظم السياسية العربية، جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 1998م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017